الفصل الثاني

مناورات سياسية جعلت المسيحية مقبولة من قبل الرومان ومستساغة (200 – 500م)

تدين المسيحية بالانتماء الكبير إليها إلى مناورات وتحركات المسيحيين الأرثوذكس، فلقد نجحوا في تحويل المسيحية من عقيدة صغيرة ممقوتة، إلى ديانة رسمية للإمبراطورية الرومانية، فلقد كان هدفهم ما دعاه الأسقف إيرينايوس هو خلق «الكنيسة الكاثوليكية المنتشرة في جميع أرجاء العالم كله، حتى إلى نهاية الأرض»[1]، وللوصول إلى هذه الغاية استخدموا تقريباً كل وسيلة، لقد أعادوا النظر في الكتابات المسيحية، وعدلوا مثلهم وكيفوها لجعل المسيحية أكثر قبولاً، فلقد عملوا بمثابة سماسرة قوادين للسلطات الرومانية، ودمجوا عناصر من الوثنية وتبنوها، وتوسلوا إلى الحكومة وتقربوا منها، ليس كديانة سوف تشجع التنوير أو الروحانية، بل بالجَرِيِّ كحركة سوف تعيد النظام والطمأنينة إلى الإمبراطورية المتخلخلة الأوصال، ومنحت الحكومة الرومانية بدورها المسيحيين الأرثوذكس امتيازات لا سابق لها ولا نظير، ممكنة الكنيسة المسيحية بذلك أن تصبح نوع القوة السلطوية نفسها بالذات، التي قاومها يسوع.

ولم يكن الحصول على قبول المسيحية إنجازاً ولا نجاحاً صغيراً، ذلك أن المسيحية لم تكن مقبولةً كثيراً داخل الإمبراطورية الرومانية، وبسهولة دمج الرومان

الأرباب الجدد والربات الجديدات في منظومة آلهتهم مع الأمل بالزيادة والإضافة إلى حمايتهم وأمنهم، ففي سنة 313م على سبيل المثال منح مرسوم ميلانو الحرية الدينية إلى كل واحد، وبذلك «يمكن لأي إله متوج في السماء، أن يعرض بصورة جيدة وبشكل موائم لنا وإلى جميع الذين تحت سلطتنا»[2]، وبالنسبة للمسيحيين الذين على كل حال آمنوا بأن إلههم هو الإله الواحد، رفضوا بأن يسمح له بأن يعبد مع الآخرين، وعندما رفض المسيحيون الإعلان عن إيمانهم بمجموعة الآلهة الرومان نظر إليهم أنَّهم يشبهون الخونة للإمبراطورية الرومانية، لأنه منذ أن بدأ الأباطرة الرومان في تقديم أنفسهم بمثابة آلهة، مثلت الطاعة والإخلاص إلى الآلهة الرومان الطاعة والإخلاص إلى الإمبراطورية الرومانية.

وكانت ميول المسيحيين وتصرفاتهم قد جعلتهم غير محبوبين من قبل الرومان، وعلى سبيل المثال أعلن الأسقف إيرينايوس: «نحن لسنا بحاجة إلى القانون، لأننا فوقه محلقين في سلوكنا الرباني»[3]، وعكست الروايات منذ حوالي 200م عدم محبة الرومان للمسيحيين:

«. . . إنهم كانوا قذارة نهائية، عصابة من الرجال الجهلة، والنساء غير الموثوقات، الذين في اجتماعاتهم في الليل، عملوا مع الصوم الجدي والطعام اللاإنساني، فتحة في الزاوية، وهم عصبة يحبون الظلال، ويصمتون بين الناس ويلتجئون مبتعدين إلى الزوايا، ويبصقون على الآلهة ويضحكون على الأشياء المقدسة. .»[4].

ومع ذلك وعلى الرغم من مثل هذه الأجواء، كسب المسيحيون ليس فقط القبول بل المكانة السياسية الرفيعة كديانة رسمية للإمبراطورية الرومانية تحت حكم الامبراطور قسطنطين في القرن الرابع.

واستخدم الأرثوذكس وسائل سياسية موائمة للوصول إلى هذه الغاية، وهم صمموا تنظيماً وصنعوه ليس للتشجيع الروحي بل لجذب وتدبر العدد الأكبر من الناس، وقد بسطوا الشروط من أجل العضوية، وقررت الكنيسة الكاثوليكية أن أي واحد يؤمن بالعقيدة، ويقبل العماد، ويشارك بالعبادة، ويطيع المراتب اللاهوتية للكنيسة و«يؤمن بوجود حقيقة صادقة واحدة، هي الحقيقة الصادرة عن الرسل، التي جرى تسليمها إلى الكنيسة، هو مسيحي»[5]، وحسبما كتب واحد من المؤرخين، بأن

مثل هذه الشروط تقترحُ أنك «حتى تصل إلى الخلاص، يحتاج الجاهلون إلى الإيمان، لكن فقط من دون فهم، وإلى إطاعة السلطات..»[6]، وتجاهل الأرثوذكس الحجة بأن المسيحي الحقيقي يمكن تحديده فقط من خلال سلوكه (أو سلوكها) ونضجه، وليس فقط من خلال ممارسة حركات الطقوس، وأصر - على سبيل المثال - بعض المسيحيين الغنوصيين على أن يسوعاً قد قال: «بثمارهم أنت سوف تعرفهم...»[7]، وقالوا بأن التعميد ليس أمراً ضرورياً لعمل الإنسان مسيحياً، بما أن كثيراً من الناس «ينزلون إلى الماء ويغطسون ويخرجون دون أن يتسلموا أي شيء»[8]، وعملت المعايير البسيطة للأرثوذكس هذا الأمر أسهل بكثير للحصول على أتباع كثر.

وقام المسيحيون الأرثوذكس بتجميع التوراة ليس من أجل وضع الأناجيل والأسفار مع بعضها بعضاً، بل بالحري لتشجيع المظهر الرسمي الموحد، وقام الأسقف ايريناوس بتصنيف أول قائمة للكتابات التوراتيّة من الأناجيل المسيحيّة الممتلئة وتشبه هذه القائمة العهد الجديد لهذه الأيام، وكان قد فعل ذلك في حوالي 180م، ومع عام 393 وعام 397م امتلك الأسقف أثناسيوس قائمة مشابهة، جرى التصديق عليها واعتمادها من قبل المجمعين الكنسيين اللذان عقدا في هبو Hippo وقرطاج[9]، وبمنع وتحريم وحرق الكتابات الأخرى أعطت الكنيسة الكاثوليكية الانطباع نهائياً، بأن هذه هي التوراة والأناجيل القانونية الأربعة تمثل وحدها فقط وجهة النظر المسيحية، ومع ذلك ففي تاريخ متأخر هو عام 450م قد قال ثيودور أوف سيروس Cyrrus بأنه كان هناك ما لا يقل عن مائتي إنجيل مختلفة متداولة في أسقفيته[10]، لا بل إنه حتى إنَّ الموسوعة الكاثوليكية تقرّ الآن وتعترف «بأن فكرة وجود عهد جديد قانوني واحد كامل وواضح تماماً، قد وجد منذ البداية... لا تمتلك قاعدة في التاريخ»[11].

وفضلاً عن قيام الكنيسة بالانتقاء من الأناجيل الكثيرة ومن الكتابات لبناء التوراة وهيكلته، حررت الكنيسة رسالتها مع كل ترجمة، وكان الفيلسوف الروماني سيلسيوس Cellsus شاهداً على أعمال تزييف الكتابات المسيحية التي كانت قد تمت في القرن الثاني، وقد قال عن المراجعات والتعديلات:

«وأنتج بعضهم، كما لو كانوا في حالة سكر شديد، رؤى وأحلاماً صادرة عن قناعة ذاتية، وأعادوا تكوين إنجيلهم وتشكيله من أول شكل من أشكال كتابته وتصنيفه، فلقد أعادوا تكوينه وشكله حتى يكون قادراً على رفض الاحتجاجات التي قدمت ضده»[12].

واعترفت الموسوعة الكاثوليكية بأنه «في جميع الدوائر والإدارات كانت هناك أعمال تزييف وإقحام بدرجة الجهالة، قد أحدثت سوءاً على مستوى رفيع»[13]، وعلى الرغم من أوامر التحريم والمنع الكنسية ضد التعمق بالأبحاث ومتابعتها حول أصول الأناجيل، أظهر العلماء بأن الأناجيل القانونية الأربعة، قد جرى تزويقها مع إعادة النظر في نصوصها[14]، وفي الوقت الذي ادعت فيه الكنيسة بأن الصدق كان محدداً من حيث الطبيعة، وقد ظهر بالإلهام مرة واحدة، لقد تابعت العمل لإيجاد سبب ما من أجل تغيير ذلك الصدق.

ولم تنجح المحاولات في سبيل توحيد مظهر العقيدة وتكوينها تماماً، حتى إنَّ الأناجيل الأربعة القانونية يتعارض واحدها مع الآخر، فإنجيل متى يخبرنا بأن يسوعاً كان من أصل أرستقراطي، من داود عبر سليمان، في حين أننا نجد إنجيل لوقا يخبرنا بأن يسوعاً كان منحدراً من جماعة أكثر تواضعاً، ويقول إنجيل مرقص بأن يسوعاً قد ولد لنجار فقير، وتبعاً لمتى جرت زيارة يسوع عند ولادته من قبل ملوك، ولكن تبعاً للوقا لقد جرت زيارته من قبل رعاة، وروى لنا إنجيلا مرقص ومتى، أنه عند وفاة يسوع كانت آخر كلماته: «ربي، ربي، لماذا تخليت عني وهجرتني؟»، ولكن تبعاً لإنجيل لوقا كان قد قال: «أبي إنني أعهد إليك بروحي، وأضعها بين يديك»، وقال بكل بساطة في إنجيل يوحنا: «لقد انتهى»[15]، وكما سأل كتّاب «الدم المقدس، الكأس المقدس»: «كيف يمكن للأناجيل أن تكون غير كاذبة عندما يكذب أحدها الآخر؟»[16].

اعتقد الإمبراطور الروماني قسطنطين بأن المسيحية سوف تزوده بوسائل سياسية وعسكرية أكثر قوة، وتصوره هذه اللوحة عشية معركة مهمة عندما قيل: بأنه قد رأى صليباً في السماء قد كتب عليه: «في هذه العلامة أنتَ سوف تنتصر».

ومع هذا كان إصرار الكنيسة على وحدة مظهر العقيدة هو الذي راق للإمبراطور الروماني قسطنطين وأعجب به، فقد كان قسطنطين رجلاً أمر بإعدام ابنه وبإلقاء زوجته بالماء الذي يغلي وهي حية[17]، ولقد رأى هذا الرجل في المسيحية وسيلة نافعة في تقوية قدرته العسكرية، وفي توحيد الإمبراطورية الرومانية الواسعة والمضطربة، وأما القصة التي تحدثت عن منام قسطنطين الذي اقتاده إلى قبول المسيحية، حيث إنَّه رأى في منامه صليباً في السماء مكتوباً عليه الكلمات التالية: «في هذه العلامة أنت سوف تنتصر»، فهي مجرد حكاية لأن قسطنطين تحول شخصياً إلى المسيحية فقط عندما كان على فراش موته، فقد اعترف قسطنطين بالمسيحية كمجرد وسيلة للتغلب على التمزق داخل الإمبراطورية الرومانية، وكذلك عوضاً عن الديانة الرومانية الرسمية وبديلاً لها.

وأبعد المسيحيون الأرثوذكس المسيحية عن التعايش مع العصيان السياسي، وهم في جميع الأحوال والمظاهر كيفوا الحقيقة حول تورط يسوع السياسي، مقررين وزاعمين بأن اليهود - وليس الرومان - هم المسؤولون عن موته، فلقد تجاهلت الأناجيل الرسمية بكل وضوح التوتر المتزايد عن المقاومة اليهودية للاحتلال الروماني لليهودية أثناء حياة يسوع، وهناك استثناء واحد موجود في إنجيل لوقا، عندما روى كيف أن السلطات قد «وجدت هذا الرجل [يسوع] يقف ضد دولتنا، ويحرم على [اليهود] دفع الجزية لقيصر»[18]، وبعد أقل من أربعين عاماً مضت على موت يسوع تفجر ذلك التوتر إلى حرب عنيفة بين الجيش الروماني واليهود.

وكان يسوع - كما هو مرجح - قد انشغل في شؤون أيامه، بحكم أنه كان قائداً سياسياً وروحياً، واصطلاح «مسيح» في كل من العبرية والإغريقية، كان لقباً فعالاً له دلالته مثل لقب «ملك» أو «قائد»[19]، وإذا ما أعطينا الأجواء السياسية حقها، يبدو من المرجح كثيراً، أن الرومان هم - وليس اليهود - الذين قتلوه بسبب نشاطه السياسي، وكان الصلب هو المعيار للعقوبة التي استخدمها الرومان ضد التمرد والعصيان، وكان الصليب هو شعاراً مثّل المقاومة اليهودية للاحتلال

الروماني[20]، ويبدو مرجحاً تماماً أن توجيه اللوم إلى اليهود عن موت المسيح، كان وسيلة موائمة لحجب تورط المسيح السياسي، ولإقصاء المسيحية عن التعايش مع الثورة السياسية[21].

وما أنْ حصلت المسيحية على المكانة العليّة، حتى سمح الأرثوذكس إلى الإمبراطور الروماني بأن يمتلك تأثيراً مباشراً على العقيدة المسيحية، وعلى تسوية الخلافات العقائدية في الكنيسة، فلقد تمّ إقناع قسطنطين، فكان أن ترأس أول مجمع كنسي مقدس في نيقية عام 325م، وفي كتاب «الهرطقات» وصف مؤلفه وولترنيغ وسائل الوصول إلى قرارات المحصلات بقوله:

«حصل قسطنطين، الذي عالج المسائل الخلافية الدينية من وجهة نظر سياسية محضة، على الإجماع، بنفي جميع الأساقفة الذين رفضوا التوقيع على صيغة الإيمان الجديدة، وبهذه الوسيلة تحقق الوصول إلى الوحدة، والقضية كلها مع بعضها لم يسمع بمثلها من أن عقيدة عالمية ينبغي أن تفرض لوحدها دون سواها بناء على سلطة الإمبراطور، الذي كان كصياد لم يجر حتى قبوله بعد لتلقي أسرار القربان المقدس، وكان تماماً غير مفوض لأن يمتلك السلطة على الأسرار الخفية العليا للعقيدة، ولم يتفوه أي أسقف بأية كلمة ضد هذا الشيء الرهيب»[22].

وكان واحداً من القرارات السياسية التي تم التوصل إليها في مجمع نيقية هو تأسيس العقيدة النيقاوية، وهي وسيلة استهدفت حفظ العقيدة بالإيمان بقوة واحدة متفوقة سليمة، وفي الوقت نفسه مثل ذلك دمج يسوع في صورة الرب، وبذلك جاء عدم عدّ يسوع بأنه فانٍ، فهو واجهة للرب ومظهر له، الرب الذي ينبغي فهمه كآب، وابن، وروح قدس، ومثلت عقيدة التثليث الجديدة هذه وحاكت كثيراً صورة تأليه قديمة حوت قيمة الخلاف وتضمينه، فعلى سبيل المثال نجد صورة الرب في الكتاب الغنوصي السري ليوحنا في قوله: «أنا الآب، أنا الأم، أنا الابن»[23]، وهذه توضح فكرة التعاون والتداؤب، حيث إنَّ الجميع خلقوا بشكل أعظم منهم كجملة أجزاء ويخبرنا نص آخر اسمه «حكمة يسوع المسيح» كيف أن قوة الذكورة والأنوثة قد خلقا معاً:

صورة تمثل الثالوث المسيحي وهو مفهوم سمح بأن يعدّ يسوع جزْءاً من الرب، مع الاحتفاظ بعقيدة التفوق الأحدي، وهي قد أخذت المفهوم الأقدم حول التثليث الذي أوضح قيمة الفرق، والذي فيه خلق رجل وامرأة بالتداؤب شيئاً أعظم منهما معاً، ووضعته مع تثليث لا مثيل له.

«. . . جرى أولاً إنجاب ولد خنثوي، أو بين بين، وكان اسمه الذكري "الابنة المنجبة الأولى صوفيا، أم العالم"، ويدعوها بعضهم باسم "الحب"، وكان الآن اسم المولود الأول المنجب هو "المسيح"»[24].

لا بل حتى فيما بعد أخطأ قرآن الإسلام (كذا) في تناول مسألة الثالوث المسيحي[1]، لأن هذا الطراز البدئي يشير إلى ثالوث: الرب، مريم، ويسوع[25].

وأسست العقيدة النيقاوية عقيدة تثليث مجدت التشابه والانفرادية، ويشير الجميع إلى فعل تداؤبي، وطاقة وسحر، يمكن أن تنتج عن اتحاد شخصين مختلفين مع بعضهما، ولكن ذلك ضاع، وأزال المجمع صورة الأب والأم والابن، ووضع مكانهم الاصطلاح العبري الأنثوي للروح (روح) مع الاصطلاح الإغريقي الحيادي، بين بين، (ليس ذكر وليس مؤنث)[26] Pneuma، وضم الثالوث الآن: الأب، الابن، والروح الحيادي الذي ليس له جنس، وصوّره المسيحيون على شكل ثلاثة شباب أشكالهم متماثلة في المظهر[27]، وفيما بعد سوف تتولى قداسات العصور الوسطى تشبيه الثالوث «بانعكاسات متماثلة صادرة عن عدة قطع من مرآة متكسرة، أو بالتركيب المتناظر للماء، والثلج، والجليد»[28]، وسوف يقوم اثنان من البابوات بتحريم كتاب «المدينة الأسطورية Mystical للرب» الذي ألفته الراهبة الإسبانيَّة مريم دي أغريدا d'Agreda لأنها أدرجت ثالوثاً بين الرب، مريم، ويسوع[29]، وضاعت جميع الإشارات إلى قيمة الخلاف، وبات من المتوجب تصور الألوهية بمثابة صورة مفردة، إما صورة ذكر، أو صورة بين بين، لكن ليست مؤنثة.

ومع ذلك كان إيمانهم بالوجوه المتعددة للرب، هو الذي ساعد الرومان على التواؤم مع المسيحية، ولم يكن مرد ذلك إلى فرادة اللاهوت والعقيدة المسيحية، وتتشابه المسيحية مع بعض عناصر العقيدة الرومانية، خاصة بالنسبة لعبادة ميثرا، أو الميثراوية، وكان ميثرا «الحامي للإمبراطورية»[30] موصولاً عن قرب بإلهي الشمس هليوس Helios وأبولو، وكان عيد ميلاد ميثرا هو 25 كانون الأول، القريب من الانقلاب الشتوي، وقد صار هذا التاريخ هو عيد ميلاد يسوع، وكان مقرراً للرعاة شهود ميلاد ميثرا والمشاركة في العشاء الأخير مع ميثرا قبل عودته إلى السماء[31]،

---

(1) هذا سوء فهم، مرده إلى المرجع المنقول عنه، على الكاتبة العودة إلى نص القرآن الكريم والإحالة عليه.

جاء عدُّ اليهود وليس الرومان مسؤولين عن صلب يسوع وسيلة لجعل المسيحية أكثر قبولاً لدى الحكومة الرومانية، وبذلك تم تجاهل إمكانية الدور الثوري الممكن للمسيح.

ويرتبط صعود ميثرا مع عودة الشمس إلى السمو في حوالي وقت الاعتدال الربيعي، وقد أصبح هذا التاريخ موعد عيد الفصح المسيحي، واستولى المسيحيون على معبد الكهف المكرس لميثرا فوق تلة اللاتيران، عاملين منه مقر كرسي الكنيسة الكاثوليكية، وكان لقب الكاهن الأعلى لميثرا هو Pater Patrum، وما لبث أن أصبح لقب أسقف روما أي «البابا أو Pope»[32] وعلل آباء المسيحية التشابه المدهش مع الميثراوية، على أنه عمل الشيطان، وأعلنوا أن القصص المثراوية الأكثر قدماً هي مجرد تقليد آثم للإيمان الحقيقي الواحد[33].

ومن دون مبادرة تأييد من الكنيسة، أصبحت شخصية مريم مبجلة بمثابة أنها صورة الجانب الأنثوي للرب، وبالتناظر ما بين المسيحية والميثراوية، صارت عبادة مريم تشبه عبادة وجوه الربات، لاسيما وجوه تقاليد الأم والابن، مثل: ايزيس وحورس، جونو Juno ومارس، سيبل Cybele، وأتيس Attis، ونيث Neith، ورع Ra، وجرى تصور مريم على أنها أكثر قرباً، ومن الممكن الوصول إليها وأنها شخصية إنسانية ليست مثل الرب الحاكم القدير، فقد كانت أكثر لطفاً، وأعظم عفواً، وأكثر استعداداً لمساعدة الإنسان في شؤون كل يوم، وفي القرن الخامس وصف المؤرخ سوزومن Sozomen سمات مريم في كتابه عن الـ Anastasia في القسطنطينية بقوله:

«ظهرت القدرة اللاهوتية هنا وتجلت، وكانت معينة في رؤى اليقظة وفي الأحلام، وذلك في الغالب للإنقاذ من كثير من الأمراض، ولمعونة الذين تأثروا ببعض النوازل المفاجئة في شؤونهم، وعزيت القدرة إلى مريم، أم الرب، والعذراء المقدسة، لأنها أظهرت نفسها وفق هذه الطريقة»[34].

ولم تشجع التوراة ولا الكنيسة المبكرة العبادة المريمية، لا بل إنها لم تعترف بمريم كقديسة[35]، مع أن مجمع نيقية أعاد تأكيد بأن المسيح كان قد ولد بالفعل من العذراء مريم، وعبر في القرن الرابع الأسقف إيبيفانيوس Epiphanus عن عاطفة المسيحيين الأرثوذكس بقوله: «من المتوجب عبادة الآب، والابن والروح القدس، ولكن لا ينبغي لأحد أن يعبد مريم»[36]، ورسم الفن المسيحي خلال القرون الخمسة الأولى العذراء مريم وصورها في مقام هو حتى أدنى من مقام الحكماء المجوس الثلاثة، الذين أحيطوا بهالات بينما لم تحط بأي شيء[37]، وفي القرن الرابع اتهم

القديس خريسوستوم Chrysostom مريم بمحاولة الاستبداد «وجعل نفسها مشهورة من خلال ابنها»[38]، وكان التقليل من أهمية مريم الطريق لتشجيع تعايشها مع ما قبل المسيحية من أوجه الربات، وقد كتب الأسقف إبيفانوس:

سمحت الكنيسة المبكرة مكرهة بعبادة مريم العذراء، وبعملها هذا سمحت للعبادة الأنوثية لما قبل المسيحية بالاستمرار ولكن تحت عنوان «عبادة مريم».

«نزل الرب وهبط من السماء، وتجسدت الكلمة في جسد العذراء المقدسة، من دون التأكيد بأن العذراء ينبغي أن تعبد، أو يجعل منها ربة، ولا أن علينا أن نقدم الأضاحي باسمها، كما أنه الآن بعد مضي كثير من الأجيال لا يجوز مرة أخرى تعيين النساء كاهنات.. حيث لم يعطها (الرب) المسؤولية للقيام بأعمال التعميد أو بمباركة التلاميذ، كما أنه لم يأمرها بأن تحكم فوق الأرض»[39].

وكانت المسيحية، حسبما فهمها الأرثوذكس، تدور حول القدرة الفردية للآب، والابن والروح القدس، وليس حول أي جانب أنثوي للرب.

ومع هذا استمرت العبادة المريمية، وعندما أعلن المجمع الكنسي في إفسوس عام 431م بأنه يمكن بشكل سليم عبادة مريم، اندفعت الجماهير للقيام باحتفالات صاخبة وبهياج عظيم، مصحوبة بمسيرات لحملة المشاعل وصراخ يقول: «الحمد لأم الرب»[40]، وجرى بالنسبة للمعابد القديمة والأماكن المقدسة، التي كانت من قبل مكرسة إلى ربات ما قبل المسيحية، أن أعيد تكريسها أو استبدلت بكنائس لمريم، ففي روما، على تلة اسكوتاين Esquitine، حلت كنيسة القديسة مريم الكبيرة محل معبد سيبل Cybele، وعلى مقربة من البانثيون Pantheon جرى تكريس كنيسة لمريم بجوار معبد إيزيس Isis، في حين بنيت كنيسة أخرى فوق الموقع الذي كان مكرساً لمينيرفا Minerva، وفوق الكابتول Capitoline في آراكولي Arcoeli، حلت كنيسة القديسة مريم محل معبد الربة الفينيقية تينت Taint، وفي قبرص نجد أن المعابد التي كانت على أرض أفروديت المقدسة، قد غدت بسهولة كنائس مكرسة لمريم، ومع ذلك فإن هذه الأرض ما تزال تعرف حتى هذا اليوم باسم Panaghia Aphroditessa[41]، وكتب غيوفري آشي Ceoffrey Ashe واصفاً في كتابه «العذراء»:

« صارت (مريم) مثل سيبل حارسة روما، ومثل أثينا حامية للمدن الأخرى المختلفة، ومثل إيزيس أشرفت على أعمال الملاحة البحرية، فأصبحت وبقيت نجمة البحر، ومثل جونو اعتنت بالنساء الحوامل... وقد لبست تاجاً يذكرنا بتاج سيبل، وجلست على العرش مثل إيزيس وحورس، لا بل إنها امتلكت لمسات مشاعر من نيث Neith حولها»[42].

ولم تقهر الكنيسة التبجيل للاهوت النسائي، بل ببساطة أعادت تسميته.

ومهم بما فيه الكفاية أن النص المسيحي حول اللاهوت النسائي أقصى وأبعد صورة واحدة هي من أكثر جوانب القوة للربات، وهي صورة العجوز الشمطاء الحكيمة Crone، فقد كانت هنالك ثلاثة وجوه لاهوتية نسائية مشهورة بشكل عام قبل التقاليد المسيحية، وهي وجوه العذراء أو الفتاة Maiden، والأم، والعجوز الشمطاء، وتجسدت مريم في الاثنتين الأولى، بحكم أنها عذراء وأم، وجرى إبعاد الوجه الثالث وهو وجه العجوز الشمطاء الذي مثل ذروة القوة النسائية والحكمة، جرى إبعاده من قانون القديسيين المسيحي، ورفض الكنيسة للعجوز الشمطاء مهم لأن شخصية العجوز الشمطاء تماماً هي التي ستغدو فيما بعد ممثلة للعدو النهائي للكنيسة، أي الساحرة.

وجنت الكنيسة مرابح كبيرة جداً بوساطة تكييف عقيدتها وبتبني عقائد رائجة، ففي عام 319م أصدر قسطنطين قانوناً أعفى فيه رجال اللاهوت من دفع الضرائب، أو من الخدمة في الجيش[43]، وفي عام 355م أعفي الأساقفة من المحاكمة مطلقاً في محاكم مدنية[44]، وفي عام 380م أصدر الإمبراطور ثيودوسيوس Theodosius مرسوماً جاء فيه:

«نحن سوف نؤمن بإله واحد، هو الآب، والابن، والروح القدس، تحت فكرة جلالة متساوية وبثالوث مقدس.

1 - نحن نأمر الأشخاص الذين سوف يتبعون هذا القانون، سوف ينالون اسم مسيحيين كاثوليك، أما البقية فهم - على كل حال - الذين حكمنا بأنهم بلا عقل وحمقى، سوف يكابدون من وصمة العقائد الهرطقية، ولن تتسلم أماكن اجتماعهم اسم كنائس، ولسوف يضربون أولاً بالانتقام الرباني، وثانياً بعقوباتنا الأولية، التي سوف نمارسها وفقاً للأحكام الربانية»[45].

وجعلت قوانين ثيودوسيوس عدم الاتفاق مع الكنيسة عملاً غير قانوني، وفي عام 388م صدر حظر منع أية مناقشات علنية عامة للمواضيع الدينية.

ومنعت في عام 392م العبادة الوثنية القديمة المتعددة الأبعاد، وعدت عملاً إجرامياً، وفي عام 410م رسم الإمبراطور هونوريوس:

«ليعلم جميع الذين يعملون ضد الشرائع المقدسة بأن دبيبهم في أوهامهم الهرطقية وتسللهم للعبادة في هياكلهم النائية، عمل يعاقب مقترفه بالنفي وبالقتل،

وذلك إذا ما حاولوا مرة ثانية الاجتماع في مثل هذه الأماكن من أجل الأعمال الإجرامية . . »[46] .

ونهبت المعابد الوثنية ودمرت، وفي عام 386م كتبت شكوى إلى الحكومة الرومانية حول نهب المسيحيين للمتبقي جاء فيها :

« . . إنهم إذا سمعوا (المسيحيون) بمكان فيه شيء ما يصلح للسلب، يقومون على الفور بالادعاء بأن واحداً من الناس يقوم بتقديم القرابين هناك، وأنه يقترف الآثام البغيضة، ولذلك عليهم القيام بزيارة تفقدية للمكان وقتها يمكنك أن تراهم يعدون هناك، أي أولئك الذين هم حراس النظام الصالح (لأنهم هكذا يدعون أنفسهم) مع أنهم رجال عصابات وقطاع طرق، إذا لم تكن كلمة رجال عصابات وقطاع طرق كلمة لطيفة، لأن رجال العصابات يحاولون على الأقل إخفاء ما قد اقترفوه، وإذا ما دعوتهم باسم رجال العصابات فإنهم يغضبون غضباً شديداً، ذلك أن هؤلاء الناس على العكس، يظهرون تفاخرهم بما أنجزوه . . . وهم يعتقدون أنهم يستحقون المكافآت »[47] .

وهدد القانون في عام 435م أية هرطقة في الإمبراطورية الرومانية بالموت، وبقيت اليهودية وحدها فقط الديانة المعترف بها قانونياً، ومع ذلك كان اليهود معزولين بقدر الإمكان، وكان الزواج المختلط بين المسيحيين واليهود، ينال عقوبة الزنا نفسها، حيث كانت المرأة تتعرض للإعدام[48]، فلقد انتصرت الكنيسة، وقاد الإيمان بوجه واحد للرب إلى تمتين الدين قانونياً، لكن دين واحد.

وتصرف المسيحيون الأرثوذكس وفق إيمانهم حول الرب، وبما أنهم تصوروه مشرفاً متحكماً بطريقة مسؤولة، انطلقوا في سبيل إيجاد طريقة فيها يمكنهم - باسم الرب - أن يمارسوا سلطة مماثلة وتحكماً مشابهاً، وقد أقاموا تنظيماً راقياً لحكومة الإمبراطورية الرومانية، بوساطة رفع شأن الوحدة والطاعة، ووفق الطريقة نفسها غير هؤلاء المسيحيون قصة وفاة المسيح، للنأي بالمسيحية عن الثورة ضد السلطات الرومانية، وأسسوا نظاماً طبقياً جعل من السهل تجنيد أعداد كبيرة من الناس، وكيفت الكنيسة المبكرة عقيدتها لتتواءم مع العقائد المعاصرة، وكان من خلال المناورة السياسية أن ربحت الكنيسة مكانتها بمثابة ديانة رسمية للإمبراطورية الرومانية، وما رافق ذلك من سلطة مدنية وامتيازات.